قصة من الواقع :

أحياء وأموات

للأستاذ سيد قطب

جلس "عبد الفضيل" تقابله زوجته "حليمة" فى كوخهما المتواضع ، الذى يدعوانه داراً . وقد نام بجوارهما أولادهما الأربعة : ابنتها الكبرى "سيدة" وقد بلغت الثانية عشرة ، واخوتها الثلاثة الذكور ، وأصغرهم قد تجاوز الثالثة بقليل .

كان الأربعة نياما على الأرض الطينية ، وقد كفتهم الطبيعة الرحيمة مؤنة الفرش والغطاء ، واللباس أيضا . كان الفصل صيفا ، والليلة قائظة ، والقرية فى الصعيد . فلم يكن بهم من حاجة إلى كل هذا الترف الذى يسمونه الفراش والغطاء واللباس . فيما عدا سترتها مهلهلة هى والعرى سواء .

وكان مصباح البترول ذى الفتيل ، يريق نوره الباهت الضئيل على جدران الكوخ السوداء ، وعلى أرضيته المعتمة ، فيبدو الأطفال فى أسمالهم كالأشباح داخل كهف أثرى . أما عبدالفضيل وحليمة ، فكانا أشبه شىء برصدين من أرصاد الكنوز الخرافية او بتمثالين فى قرار الباهت العميق .

وبعد فترة من الصمت القابض الثقيل ، تململت "حليمة" فى جلستها ، وهمت بالكلام . وكأنما تزيح عن لسانها صخرة حائية ، وترفع عن صدرها عبئا ثقيلا .

قالت : "وبعدين يا عبد الفضيل ؟ وإيش بعد ما العيال آهم باينين بالجوع ؟ .

ومضت فترة قبل أن يستطيع "عبد الفضيل" التنهد بشدة ، ليستنشق نفسا عميقا ، يتشجع به على الكلام بصوت مخنوق :

" وأنا بايدى إيه ياحليمة ؟ ربنا موجود !

قالت المرأة ، وقد خفت حدة لسانها :

— لكن يا عبد الفضيل دا حال صعب قوى !

قال عبد الفضيل فى ضيق مكتوم :

وأنا بس أعمل إيه يا حليمة ، ما انتى عارفه ! هو أنا خليت حاجه معملتهاش ؟ هو أنا ساكت ياشيخة ! ما تخلى الواحد فى قلبه أقال !

ولم تسكت المرأة . إذ بدا على وجهها أن خاطرا وضيئا قد أشرق فى رأسها المكدود ، فانفرجت أساريرها وتهلل جبينها ، وراحت تقول :

— طيب أنا عندى فكرة يا عبد الفضيل . بس تطاوعنى؟ والنبى ان طاوعتنى ليكون فيها الخير والبركة ومفتاح الرزق باذن الله .

ولم يفارق الرجل همومه ، ولم يعده نشاط امرأته ، فأجاب فى استسلام يائس :

طيب قولى . وأنا أديني أهو مستعد حتى للومان ، إن كان فيه عيش للعيال !

قالت المرأة ولم يفارقها إشراقها ، ولم تعدها لهجة الرجل اليائسة — قالت وكأنما تلقى إليه بمفتاح كنز — تروح مصر !

وقدحت الفكرة فى ذهن الرجل ، فاتسعت حدقتاه ، ولكن الجذوة خمدت سريعا ، فأجاب فى تهكم خافت : — هى دى الفكرة ؟ وإيه اللى لينا فى مصر ؟ . وإيه اللى حيوصلنا لحد مصر حتى ؟

ولم تنهزم حليمة ، فالفكرة كانت عزيزة عليها . قالت :

تروح عند ولد عمك " عبد الباقى" ويمكن ربنا يفتح عليك زى ما فتح عليه ، وتشتغل فى مصلحة الكنس والرش زيه ، وتشيع تاخدنا كلنا ، ونعيش هناك فى بلاد النعيم ، بعيد عن الفقر والحيب ، زى ماعمل ولد عمك يا عبد الفضيل !

ولم تعد المسألة فى نفس الرجل فكرة سخيفة كما كانت منذ لحظات — بل استحالت مشروعا عمليا يستحق التفكير ، فتقبض جبينه ، وبدا على وجهه الاهتمام ، وصمت برهة يستجمع شواهد فكره . ولكن ما لبث أن بدا على وجهه اليأس والهم ، وهو يجيبها فى حرارة :

— العين بصيرة واليد قصيرة . وفين أجرة السفر لحد مصر ؟

قالت المرأة فى لهجة آلية :

— أقولك . ربك يدبرها !

وكأنما أثارت هذه السذاجة نفس الرجل — وهو يواجه مشكلة ضخمة — فارتفعت نبراته ثائرة :

— انتى نايمة ؟ ياشيخه انتى : إنت عارفه إن الأجرة لحد مصر تمانية وسبعين قرش صاغ ونص ؟ (قالها وهو يمط كل كلمة وكل رقم ، ثم يضغط فى النهاية على كلمة "ونص") .

ووصلت نبراته العالية إلى آذان الأطفال النائمين ، فتململوا . وفتحت سيدة ، عينيها المثقلتين بالنوم . وقالت متلعثمة .

— عاوز حاجه يابوى ؟

فتدم الرجل على رفع صوته ، وإزعاج الأطفال الجياع ؛ وانتقل بسرعة إلى جوار ابنته قربت عليها بحنان ظاهر ، وهو يقول فى لهجة وديعة :

— لا ياختى انعسى ... انعسى يا سيدة . مفيش حاجه يا بتى !

ولم تكن سيدة ، فى حاجة لمن يدعوها إلى النوم ، فلقد عادت تغط فى نومها بعد آخر حرف لفظته !

(وساد الصمت برهة على الكوخ ، ثم عاودت حليمة ، الكلام حذرة فى هذه المرة ؛ وفى صوتها الخافت نبرة متوسلة .

— ومين قال يا عبد الفضيل ، تسافر فى القطر الغالى ياخوى ؟ متسافرش فى مركب ؛ هو ولد عمك كان سافر فى قطر لما سافر ياعبد الفضيل ؟

وكان لهذه الكلمات قيمتها فى إثارة آمال جديدة ؛ فقال الرجل فى لهجة وديعة :

— معاكى حق ... لكن هى أجرة المركب هينه ، لو كانت موجودة كنا جبنا بيها كيلة غلة ياكلو فيها العيال دول !

قالت حليمه .

أقولك . ربك يفرجها ... أهل الخير كتار ... يالله بنا نرقد دلوقت ، والصباح فتاح !

* * *

لم يسبق لعبد الفضيل أن غادر القرية حتى إلى البندر — فضلا على القاهرة العظيمة — لم يكن يستطيع أن يعرف موعد وصول المركب الى ساحل أثر النبى ، ليخبر ابن عمه فيلتظره عتمد على القول الريفى المأثور : اللى يسأل مايتهش . وما دام عنوان عبد الباقى معه ، فهو مستطيع أن يصل اليه : (شارع فم الخليج . حارة السكر والليمون . زقاق الحجانه نمرة ٣) .

وسأل فلم يته . ولكن الذى تاه هو عقله ! حينما شاهد عربات الرش وهى تبعثر الماء بشدة فى الطريق العام .

لقد اعتاد فى القرية النائية أن يكون الماء بمقدار : فأما الأغنياء فهم يستخدمون السقاء ليجلب لهم الماء فى الزقاق من النيل فى أشهر الفيضان ، حينما يغمر الماء الحياض ؛ ومن بئر القرية فى سائر العام . وأما الفقراء ، فهم يرسلون زوجاتهم وبناتهم ينقلن الماء فى الأوانى والجرار لملء الأزيار .

وقد يرش بعض الموسرين زقا من الماء فى رحبة دورهم للتطرية . اما أن يبعثر الماء هكذا فى الطرقات ، فذلك أمر لم يشهده إلا مرة واحدة ، يوم زار القرية سعادة الباشا المدير .

وخطر له فى مبدأ الأمر أن العربة مخروقة ؛ وهم أن ينبه السائق الى هذا الأمر الجلل ثم خطر له أن ربما كان اليوم موعد زيارة الباشا المدير ، أو أحد الحكام العظام ، ولكنه

رويدا رويدا جعل يدرك أن هذا أمر عادى ، وساعده على هذا الإدراك أنه فى « مصر أم الدنيا » حيث كل شىء عجيب ؛ وورد على ذهنه عنوان العمل الذى التحق به ابن عمه والذى يرجو أن يفتح الله عليه ، فيلتحق به — وهو مصلحة الكنس والرش — ولم يكن قد تصور من قبل مدلولا معينا لهـذا الاسم قط . فهاهوذا يتصور صورة غامضة ؛ ولكنها قريبة من الواقع ؛ فابن عمه له علاقة ما بهذا « الرش » الذى تقوم به العربات !

وتقدمت خطواته فى الحارة ، فرأى منظرا عجبا : جمع من السقائين ومعهم زقاق الماء وكثير من النسوة والبنات و بعض الصفائح الفارغة ، أمام صنبور ضخم يديره رجل جالس على معقد عال خلف الصنبور ، فيصب المـاء صبا ، فى هذه الصفائح ، وفى تلك الزقاق ، فى يسر وسخاء ؛ ثم ينصرف الجمع واحدا بعد واحدة ، دون أن تستغرق هذه العملية بضع دقائق !

يالله ! لقد كاد يدرك سرا لإسراف فى رش الشوارع بالمـاء . فالمـاء هنا لا يكلف الناس شيئا ولا يحملهم مشقة . إنها قطعة من الحديد تدار بسهولة ؛ فيتدفق المـاء بدفقا فلا لولب ، ولا حبل ، ولا دلو ، ولا جهد فى استخراج المـاء من قاع الآبار .

لقد رأى قبل ذلك « المضخة » فى دار العمدة ، حيث يخرج المـاء متدفقا بعض الشىء بعد ادارتها باليـد ؛ ولقد رأى كذلك صنابير المسجد ، حيث يملأ الحوض بالمـاء من بئر المسجد ليتوضأ المصلون . ولكن هذه السهولة وهذا السخاء الذين يراهما الآن ، شىء آخر لم يخطر له ببال .

وما كاد يسير بضع خطوات — وهو يجيل فى نفسه هذه الأفكار — حتى أشرق خاطره بحلم وضىء ، اهتز له كيانه كله ؛ وشاع فيه الرضى والشوق واللهفة فى آن : ترى يفتح الله عليه كما فتح على ابن عمه « عبدالباقى » ويتحقق حلم زوجته « حليمه » فيرسل فى استحضارهم من القرية ، حيث يعيشون هنا فى بلد النعيم ؛ وتكون « سيدة » بنته ، هى إحدى هؤلاء البنات فى اللواتى شاهدهن ، لا يتكلفن فى استحضار المـاء الى الدار مشقة ولا نصبا ، كما تتكلف هى غاية الجهد فى قريتهم النائية ؟

ووجد نفسه يفرك كفيه من الفرح ، ومن الشوق ، لهذا الحلم المرتقب الجميل !

* * *

حينما عاد « عبد الباقى » من عمله وجد ابن عمه فى داره ؛ فسرته هذه اللقيا بعد عهد طويل ؛ واستخفته الشوق إلى عناق حار ، وسلام متواصل ، كانت الأكف فيه تفترق لحظة لتتلاقى بعد ذلك من جديد .

وما كاد يستقر بهما المقام ، وينتهى السؤال عن الأهل والأحوال ، حتى وجـد « عبد الفضيل » فى نفسه رغبة حارة ، ليحدث ابن عمه عما رآه من العجائب فى طريقه إلى مسكنه : عربات الرش ، والمـاء المراق فى الطرقات ، وصنبور المـاء العام ، وسهولة الاستسقاء على هذا النحو العجيب !

وابتسم ابن عمه ابتسامة المجرب الخبير ، أمام القروى الساذج الغرير ! وأحس بكثير من الزهو أمام ابن عمه ولا سيما حكاية « الرش » وله بها علاقة كما عرفنا — وراح يقول فى لهجة خليطة من لهجة القاهرة ولهجة الصعيد .

— وانت شفت ايه ياولد العم . دا تعرف . دا فيه بيوت هنا . جوّاها حنفيات ... البيت اللى جنبنا ده فيه حنفية فى قلب البيت ، زى اللى شفتها بره . بس دى صغيرة شوية والسكان كلهم فوق وتحت ، ياخدوا منها من غير ما ينتقلوا خطوة برا البيت !

وفغر « عبد الفضيل » ، فاه من الدهشة ، وهو يتخيل هذا الحدث المدهش : حنفية فى وسط الدار ، والسكان لا يتكلفون مغادرة المنزل للحصول على الماء ... السكان جميعا !

ولم ينقذه من هذه الدهشة إلا أن يتذكر أنه فى مصر — يعنى القاهرة — فجعل يردد فى شبه ذهول :

— أيوه . أمال ياعم . مصر أم الدنيا .

وبينما كان لسانه يردد هذه الألفاظ . كان خياله يسبح ، ليرسم صورة أخرى "لسيدة" غير التى رسمها لحاق الطريق فهى فى هذه المرة لاتتكلف الخروج بالصفيحة الى حنفية الطريق انها ستستقى لهم من حنفية البيت الذى يسكنون فيه !

وحينما كان مستغرقا فى هذا الخيال البعيد ، كان ابن عمه يتابع حديثه فى زهو شديد :

— وفيه كمان بيوت — بس موش هنا . بره شويه — فيها حنفية فى كل دور . والبيت الواحد تلاقى فيه ثلاث أربع حنفيات . وكل ساكن فى دور حنفيته لوحده !

واذا كان خيال عبد الفضيل ، قد استطاع أن يتصوّر وجود حنفية فى كل منزل ، فان هذا الخيال قد عجز عجزا تاما عن تصور هذا الذى يقوله عبد الباقى الان !

حنفية فى كل دور ؟ !

ولم يحاول بالطبع أن يرسم صورة ثالثة "لسيدة" فى هذا الوضع الجديد . فان خياله لم يسعفه بحال من الأحوال !

***

فى الصباح نشرت بعض الصحف ، أن أحد أثرياء القاهرة ، بنى لنفسه مدفنا ، كلفه ثلاثين الف جنيه ! ومد إليه أنابيب الماء ، وأجهزة التسخين والتبريد ، وجهزه بجهاز للإذاعة !

تناسق !!!

أحياء وأموات !!!

سيد قطب